



# مكر روايات الوجودية بين الفلسفة والأدب

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

ولعل هذا هو ما أرادت سيمون دي بوفوار أن تعبر عنه حينما كتبت تقول: «أن لكل تجربة إنسانية بعدا سيكولوجيا خاصا. ولكن على حين نجد أن الباحث النظري يستخلص تلك المعاني محاولا دائما أن يكون منها مركبا عقليا مجردا ، نرى أن الروائي يعبر عنها تعبيراً حياً بأن يضعها في سياقها الفردي الواقعي. وإذا كان بروست مثلاً يبدو مملاً سقيماً باعتباره تلميذاً لزيو ، حتى أننا لنكاد نجزم بأنه لا يأتي بجديد على الإطلاق ، فإنه بوصفه زوايا أصيلاً يكشف لنا عن حقائق جديدة لم يستطع أي باحث نظري في عصره أن يشير ضمناً أو صراحة إلى أي معادل تجريدي لها» (1).

والواقع أن الوجودية ان هي الا جهد يراد به التوفيق بين الموضوعي والذاتي ، بين المطلق والنسبي، بين اللازمي والتاريخي ، بين العمق الفكري والنقل المادي . الخ. والوجودية أيضا محاولة إنسانية شاقّة من أجل ادراك الماهية في صميم الوجود ، والكشف عن معنى الحياة من خلال المواقف والاحداث . فليس بدعا ان نراها ترحب بالرواية وتصطنع اسلوب التأليف الروائي ، ما دامت الرواية هي التي تسمح للفيلسوف بأن « يقف على الانبثاق الاصلي للوجود في حقيقته الكاملة النوعية التاريخية » . حقا ان ثمة فلاسفة يزدرون أسلوب التعبير الروائي ، ولا يرون موضعا للمزج بين الفلسفة والقصة ، ولكن هؤلاء – فيما تقول سيمون دي بوفوار – انما هم اولئك الفلاسفة الذين يفصلون الماهية عن الوجود ، ويحتقرون « المظهر » بوصفه دون « الحقيقة المستترة » ! واما اذا عرفنا ان « المظهر » نفسه « حقيقة » ، وان « الوجود » انما هو حامل « الماهية » ، وانه لا سبيل الى فصل الابتسامة عن الوجه الباسم ، ومعنى الحدث عن الحدث نفسه ، فهناك لا بد لعيننا الفلسفي من ان يعبر عن نفسه من خلال اللمع الحسية والبوارق المادية ( على حد الاصطلاح الصوفي الاسلامي ) التي تنبعث من العالم الارضي نفسه . ومن هنا فقد التجأ الفكر الوجودي الى الروايات والقصص والمسرحيات ، ليلمس فيها تعبيراً حياً خصبا عن شتى خبرات الانسان الوجودية بوصفه « كائنا ميتافيزيقيا »

ليس من شك في ان القارئ العربي الذي اطلع على روايات سارتر أو كامو أو سيمون دي بوفوار يعلم تمام العلم انه بازاء نوع جديد من « الرواية » غير ما اعتاد ان يقرأه لدى روايين آخرين من امثال فلوبيير أو بلزاك أو اميل زولا أو غيرهم . ولكنك لو ساءلت القارئ العادي عما يميز هذه الروايات « الوجودية » – ان صح هذا التعبير – عما عداها من الروايات ، لكان جوابه انها روايات فلسفية تناقش مشكلات ميتافيزيقية في سياق روائي ، فتقدمنا مزيجا من « الادب الفلسفي » (1) . ونحسن لا ننكر ان « الرواية الوجودية » رواية فلسفية تمزج الادب بالميتافيزيقا، وتحلل الانسان بوصفه موجودا حرا تفيض تجربته بالعمق والثراء والواقعية ، ولكننا نعتقد ان روايين كثيرين قبل سارتر واتباعه قد قدموا لنا من خلال أعمالهم الفنيّة نظرات خاصة الى الوجود . حقا ان هؤلاء الروائيين لم يقدموا لنا قضايا حاولوا البرهنة عليها ، أو موضوعات أرادوا التدليل على صحتها ، ولكنهم حاولوا ان يضعوا بين أيدينا احداثا إنسانية تنطوي على مدلولات فلسفية، ومواقف بشرية لا تخلو من معان ميتافيزيقية . . . حسنا ان نرجع الى بلزاك وستندال ودوستويفسكي وبروست ومالرو وكافكا وغيرهم ، لكي نتحقق من أن كل هؤلاء – وغيرهم كثير – روايون فلاسفة قد اهتموا بمشكلات المصير الشخصي، والقلق امام الموت، والعلاقات الشخصية مع الآخرين ، وصراع الحب ، وغير ذلك من موضوعات إنسانية ترتبط بالام الفرد وآماله . . .

بيد ان الرواية الوجودية لم تعد تقف من الانسان موقفا موضوعيا على نحو ما كان يفعل فلوبيير ، او موقفا تهكميا ساخرا على نحو ما كان يفعل أناتول فرانس ، كما انها لم تعد تهتم بأن تقدم لنا عن الانسان دراسات اجتماعية طويلة الباع على نحو ما كان يفعل بلزاك أو اميل زولا ، بل هي قد أصبحت تقدم لنا عن الانسان صورة واقعية ملموسة ، تصورنا في اطرافه الاجتماعي المتبدل ، او تصفه لنا في جوه العائلي الاعتيادي ، فتكشف لنا عن عمق أهوائه ورذائله وشتى مظاهر نقصه ، وتجرده من وظائفه الاجتماعية لكي تضعه وجها لوجه أمامنا على نحو ما هو في صميم علاقاته بذاته، وبالعالم، وبغيره من أبناء هذا العالم . . .

Simone de Beauvoir : L'Existentialisme et la Sagesse (1) des Nations » , Paris, Nagel, 1948, p. 114.

Cf. R. Campbell : « J.P. Sartre : Une Littérature (1) Philosophique » Paris, Pierre Ardent, 3e éd., 1947.



### البيير كامو

يصدق على بعض مسرحيات جبرييل مارسيل ، فإنه قد يكون من التجني الصارخ أن نطبق مثل هذا الحكم على روايات سارتر ، أو سيمون دي بوفوار ، أو البيير كامو . والسبب في ذلك أننا لا نجد عند هؤلاء قضايا جاهزة يحاولون البرهنة عليها ، أو تعاليم عقلية يعملون على إثبات صحتها ، بل نحن نجد لديهم دائما أبدا مواقف إنسانية معاشة ، وأحداثا تاريخية معمقة ، وربط مستمر بالخاص بالعام . وبعبصري - في هذا الصدد - ما كتبه أحد اخواننا العرب في تعاقب له على رواية « المثقفين » لسيمون دي بوفوار ، فقد فطن هذا الباحث أن « مهارة الكاتبة وذكائها كروائية أصيلة ينبعان من قدرتها على تطوير كل قضية يطرحها العالم الخارجي على أبطالها تطوييرا تتعمق فيه هذه القضية حتى تصل الى مستوى الموقف الإنساني من الحياة بأكملها . . . وان تعميق الأحداث على هذا المستوى يحمل قدرة فائقة تشير الى امكانية البحث في حياتنا اليومية على مستوى موقفنا من الوجود . لقدنبذت الكاتبة المشاكل الفكرية التقليدية التي طرفها كل من جوته ودوستويفسكي وتولستوي ، وهي مشاكل ميتافيزيقية في جوهرها ، وقدمت لنا الحياة اليومية في منظور وجودي يمنح كل حادثة عمقا يصل بها الى جذور الحياة في معناها وجدواها أو عبثها » ( ٢ ) .

حقا أن سيمون دي بوفوار نفسها قد اعترفت بأن الرواية الوجودية هي في صميمها تعبير عن « البعد الميتافيزيقي

يحييا في العالم ومع الآخرين . ( ١ )

ولا تنحصر مهمة الروائي الوجودي في استغلال بعض الحقائق السابقة المحصلة فلسفيا ، في مضمون العمل الأدبي أو الإنتاج الفني ، وإنما تنحصر مهمته في الكشف عن « مظهر » معين من مظاهر التجربة الميتافيزيقية ، إلا وهو ذلك المظهر الذي لا سبيل الى تبيانها على أي نحو آخر ، نظرا لما يتسم به من طابع ذاتي ، جزئي ، درامي . وما دامت الحقيقة - فيما يرى الوجوديون - لا تدرك عن طريق العقل وحده ، فإن أي وصف عقلي لا يمكن أن يقدم لنا عن « الواقع » صورة صادقة مكافئة . ولهذا يحاول الروائيون الوجوديون أن يعبروا عن الواقع في شتى مظاهره ، على نحو ما ينكشف لهم من خلال تلك العلاقة الحية التي تربط الانسان بالعالم ، وهي تلك العلاقة التي يقولون أنها في صميمها فعل وعاطفة ، قبل أن تكون فكرا وتصورا . وهم حين يصطنعون الرواية للتعبير عن الواقع على هذا النحو من العمق والنفاذ والنصاعة ، فإنهم لا يسترسلون في شرح تعاليمي يقتل الرواية أو يحيلها الى مجرد محاضرة فلسفية ، بل هم يكيفون الملاحظات الذاتية مع اللقطات الموضوعية ، ويحققون التكامل بين تحليل العواطف وتوازن الأحداث أو المواقف . وعلى حين أن بعض دعاة « الادب الموجه » قد يتخذون من الرواية مجرد ذريعة أو مناسبة لتقديم بعض الدعاوى الفكرية أو القضايا الفلسفية ، نجد أن جماعة الروائيين الوجوديين يعمقون أحداث الحياة اليومية على مستوى ميتافيزيقي ، فينفذون الى جذور الوجود الإنساني ، دون التوقف عند المناقشات الفكرية الخالصة أو المساجلات الجدلية المحضة .

صحيح أن رواية « الغريب » لالبيير كامو هي تصوير روائي لفلسفته العبثية، وصحيح أيضا أن روايته « الطاعون » تعرض لنا في ثانيا أحداثها الدرامية قضية « الانسان المتورد » ، ولكن من المؤكد أن كامو - في كلتا الروايتين - إنما يقدم لنا عملا فنيا نستمتع به ونستغرق فيه ، دون أن يحشد في هذا العمل أدلة عقلية أو براهين فلسفية . وقد نجد في رواية « المثقفين » لسيمون دي بوفوار بعض مناقشات فلسفية أو مساجلات سياسية تجري بين بعض أشخاص الرواية ، ولكن الذي لا شك فيه أن القضايا التي يطرحها هؤلاء الأشخاص ليست محض قضايا ميتافيزيقية مجردة ، بل هي مواقف إنسانية حية تنبع من صميم تجاربهم المعاشة . . . والواقع أنه ليس أفسد للعمل الأدبي - روايا كان أم مسرحيا - من أن يتخذ صورة قضية يظهر صاحبها بمظهر الباحث الذي يسعى جاهدا في سبيل الحصول على أدلة أو براهين لتأييد مذهب أو الدفاع عن قضية . وربما كان برييه محقا حين يقول: « ان ثمة أعمالا أدبية نجد فيها أن الروائي قد استحال الى مفكر جدلي ، كما أن ثمة أعمالا فلسفية نجد فيها أن المفكر الجدلي قد استحال الى روائي ، ولكن من المؤكد أن مثل هذه الأعمال إنما هي الدليل القاطع على أن عصرنا الحاضر لا يخاو - مع الأسف - من ذوق رديء ، وفهم سيء ، وميل الى الخلط » ( ٢ ) . وقد يقع في ظن البعض أن برييه يشير من طرف خفي الى بعض الأعمال الأدبية التي انتجها الوجوديون ، ولكننا نعتقد أنه إذا صح أن هذا الحكم قد

( ١ ) أرجع الى مقدمتنا للترجمة العربية لمسرحية سارتر « جلسة سرية » ، دار النشر المصرية ، ص ٧ .

( ٢ ) E. Bréhier : Transformation de la Philosophie Française ، « 1950 ، pp 190 - 194 .

( ١ ) محيي الدين صبحي : « المثقفون في عالم جامح » ، مجلة الاداب ، اكتوبر سنة ١٩٦٢ ، ص ٥٩ ( العدد العاشر ) .

الذي يتحرك عبره الوجود البشري ، ولكن من المؤكد ان هذا « البعد الميتافيزيقي » انما ينكشف في « الرواية الوجودية » من خلال مواقف متعارضة واحداث متشابكة ، ومشاعر متناقضة . . . الخ . وليس من الغريب ان تكون ثمة رواية سارترية ، ما دامت وجودية سارتر هي في صميمها ، فلسفة تؤكد بكل قوة ما للتجربة من طابع ذاتي ، جزئي ، عيني ، درامي تاريخي ، زمني .

وإذا كان من المستحيل ان تصور رواية ارسطاليسية او اسبينوزية او ليبنتسية ، فذلك لانه ليس للذاتية او الزمانية اي موضع في مذهب ارسطو او اسبينوزا او ليبنتس . واما عند سارتر ، فاننا دائما بصدد مواقف ميتافيزيقية ينكشف من خلالها قلق الانسان ، وعبث الحياة ، وصراع الحريات ، وجزع الوجود البشري من الموت ، وحينه الى المطلق . الخ . وحين يحاول الفيلسوف الوجودي ان يعبر عن هذه المواقف الميتافيزيقية ، فانه لا يقسرها على الاحداث قسرا ، كما انه لا يسقطها على الشخصيات اسقاطا ، بل هو يضعها في سياقها الواقعي الجزئي ، ويدعها تنطق بلغتها الخاصة من خلال اللقطات الموضوعية . ومن هنا فان ابطال سارتر او كامو او سيمون دي بوفوار ليسوا بالضرورة فلاسفة او مفكرين او اهل جدل ، بل هم أولا وبالذات موجودات بشرية تواجه مصيرها ، ويعمل كل منها على تعميق كل قضية تعترضه ، مدركا في الوقت نفسه انه « ملتزم » امام نفسه ، وامام العالم ، وامام الآخرين .

والحق ان الرواية الوجودية ليست مجرد عمل ادبي يجمع بين العمق الفلسفي والتحليل النفسي ، بل هي ايضا أسلوب جديد من اساليب التعبير الميتافيزيقي تنبع فيه عقدة القصة من ربط احداث الحياة بمعناها وغايتها . وهكذا يبدو لنا « الانسان » في الرواية الوجودية كأننا مشخضا تربطه بالعالم علاقات دينامية معقدة ، وينقضي وجوده في داخل هذا الاطار الخارجي الذي يعيش فيه ، وتحدد حريته في نطاق ذلك السياق التاريخي الذي يحيا بين ظهرانيه . . . وما كان الانسان « موجودا ميتافيزيقيا » الا لانه يضع نفسه دائما ككل ، بازاء العالم بأسره ككل ، فيواجه العالم في كل لحظة ، ويركب عالمه الخاص ابتداء من بعض المواقف الوجودية الخاصة . وحينما يقول بعض الوجوديين ان لكل حدث انساني دلالة ميتافيزيقية ، فانهم يعنون بذلك ان الانسان يجد نفسه دائما في كل حدث من الاحداث « ملتزما » بأسره ، في العالم بأسره . ومن هنا فان ابطال سارتر وسيمون دي بوفوار والبير كامو يكتشفون من خلال تجاربهم الوجودية حضورهم امام العالم ، واستناد كل واحد منهم الى ذاته وحدها ، ومقاومة الذوات الاخرى له ، واختياره لنفسه بمقتضى حريته الخاصة . . . الخ . حقا ان ثمة فوارق شخصية شاسعة بين ماتيو بطل « دروب الحرية » ، وهنري بيرون احد ابطال « المثقفين » ، ومرسو بطل « الغريب » ، او تارو احد ابطال « الطاعون » ، ولكن من المؤكد ان كل هذه الشخصيات الوجودية انما هي اولاً وبالذات موجودات بشرية واعية تحيا قضايا الانسان المعاصر بكثافة وعمق ونصاعة وجودية (1) .

والظاهر ان الروائيين الوجوديين لم يريدوا لشخصياتهم ان تظل بمثابة مخلوقات سلبية يدرسها النقاد ، ويحللون سماتها ، ويفسرون تصرفاتها ، بل هم قد شاءوا ان يقدموا لنا شخصيات واعية تضطلع هي نفسها بمهمة تفسير المعاني التصويرية التي ينطوي عليها وجودها . . . وآية ذلك ان الشخصيات الروائية عند سارتر تقول هي نفسها كل ما يراد لها ان تقوله ، وكل ما يمكن ان يقوله عنها الاخرون ! ومعنى هذا انها لم تعد بمثابة موضوعات دراسة ينشرها الروائي هنا وهناك ، وانما هي قد اصبحت بمثابة شخصيات واعية تفهم ذاتها ، وتنتقد سلوكها ، وتعلق على تصرفاتها . فانت - مثلا - اذا نظرت الى شخصية ماتيو او شخصية دانيال في رواية « دروب الحرية » ، وجدت نفسك بازاء شخصية واعية لا تنتظر منك ان تتعرف على طابعها الخاص ، او ان تدرجها تحت بعض الانماط الشخصية العامة ، لانها هي نفسها تقوم بهذه المهمة لحسابها الخاص ، دون ان تنتظر من أي ناقد فني ان يجيء فيتأولها او يفسرها او يضطلع بشرحها ! فماتيو - مثلا - يعلن منذ البداية شعار الحرية التي انتهجها لنفسه ، اذ يقول بصريح العبارة : « ان الحرية هي المنفى ، وانا محكوم علي بأن اكون حرا » . . . وهو حين يقبع في داخل ذاتيته ، فانه يدرك تماما ان الحرية قضية شخصية ، وان المنفى هو ممارسة لارادته المطلقة . ولكن الاحداث التي اختلفت على فرنسا ابان الحرب لا تثبت ان تظهره على ان الحرية ليست مجرد انطلاق طائش للارادة ، بل هي تعبير عن ارادة الفرد من خلال ارادة الجماعة . وتبعاً لذلك ، فانه يصطحب زملاءه ويمضي الى المعركة ، محاولا ان ينقذ ماضيه ، مدركا ان الحرية الحقيقية انما هي الالتزام وفقا لاختيار اصيل يقوم على وعي وتبصر . وهكذا الحال ايضا بالنسبة الى شخصية مرسو في رواية « الغريب » : فان هذا الموظف البسيط في احد المكاتب بالجزائر يشعر بأن حياته اليومية سلسلة من الاعمال الروتينية ، والتصرفات الآلية ، والحركات المتبدلة ( اكل وشرب ونوم وتدخين ) ، فهو لا يتردد في ان يصيح قائلا : « ان الامور لدي سواء ! » . وهذا « الوعي » الذي يصاحب احساس مرسو برتابة الحياة هو الذي يجعل منه بطلا وجوديا يدرك انه لا معنى لحياته على الاطلاق . وآية ذلك انه يشعر شعورا واضحا بأن حياته « لا تتقدم نحو هدف ، ولا تنتظم حول فكرة ، بل تجري عميةآلية . انها منسوجة من ترديد أبدي للحركات ، والافكار الصغيرة ، والاحاسيس الفجة » (1) ويقترف مرسو جريمة القتل ، فلا يلبث ان يجد نفسه وجها لوجه بازاء واقعة الموت . وهنا يجيء الموت فيزيد من حدة شعوره بعبث الحياة ، ويثير في نفسه الرغبة في التمرد ، وهكذا يبدو العبث بمثابة « وعي للموت » ، ورفض له في الان نفسه » . ( ص ٧٧ ) . ويقرا الناقد كلمات مرسو اثناء المحاكمة ، فيدرك انه بازاء شخصية واعية تراقب ما في الحياة من واقع عبثي ، وتجدد نفسها وجها لوجه امام الموت فتختار التمرد لا الانتحار . . .

واما في رواية « الطاعون » ، فاننا نجد تارو يقول بكل صراحة : « ان ما يهمني بالاجمال هو ان اعرف كيف يصبح الانسان قديسا » . ويعترض عليه الطبيب ريو

(1) روبري دي لوبييه : « كامو والتمرد » ، ترجمة الدكتور سهيل

الدرسي ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٧٠

(1) زكريا ابراهيم : « مشكلة الفلسفة » ، الطبعة الثانية القاهرة،

دار القلم ، ١٩٦٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

بقوله : ولكنك لا تؤمن بالله « ، ولكن تارو يجيبه بقوله : « من اجل هذا أسأل سؤالي . هل في وسع الانسان ان يكون قديسا من غير الله ؟ تلك هي القضية الوحيدة المحسوسة التي اعرفها اليوم » ( ١ ) . وتمضي احداث الرواية فتزيد من شعورنا بان تارو وعي عبثي متبصر « يعرف كل شيء في الحياة » . وحين يعصف أطاعون بالأطفال والابرياء ، يجيء الوقوف على عذاب الاخرين ، فيثير في نفس تارو الشعور بالحب ، ولكنه في الوقت نفسه يوظف في قلبه الاحساس بالتمرد ايضا . وهكذا يثور تارو على الله لكي يرفضه او ينكره ، لا باسم الحب والتمرد فقط ، بل باسم تلك القداسة التي لا يمكن ان توجد مع الله !

ولكن تارو لا يكتفي بالتمرد ، بل هو يقوم بصراع عنيف ضد الشر . وهو يؤكد في الان نفسه ان هناك طاعونا داخليا يقابل ذلك الوباء الخطير الذي يطيح بالاجسام ، الا وهو طاعون الروح الذي يتمثل في الحقد والكسب والكبرياء . وهو لذلك يقرر بكل صراحة « ان كل انسان يحمل في جلده الطاعون ، لانه ليس ثمة في الدنيا من هو معصوم منه » . وكما ان من واجب الطبيب ان يصارع الطاعون الجسمي ، فان من واجب الرجل النقي ان يقوم بصراع باطني ضد الشر ( او الطاعون الروحي ) . ومن هنا فان تارو يؤكد مرة اخرى « ان الطبيعي هو الجرثومة . واما لباقي : الا وهو الصحة والسلامة والنقاء ، فهذا

( ١ ) البير كامو : « الطاعون » ترجمة الدكتور سهيل ادريس ،

بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٢٦٠ .

كله - اذا شئت - اثر للارادة ، تلك الارادة التي لا ينبغي ان تتوقف قط . . . » ( الطاعون ، الترجمة العربية ، ص ٢٥٨ ) . ويشترك الدكتور ريو مع تارو في المناقشة ، فلا يلبث ان يعلن انضمامه الى زمرة العاملين من اجل التخفيف من ويلات الانسانية في الحاضر المباشر ، دون التفكير في حياة مقبلة . وريو طبيب اجسام ، لا طبيب ارواح ، فهو لذلك مهتم بصحة الانسان ، على اعتبار ان « حب الانسان يقتضي العناية به ، لا انقاذه من اجل حياة مقبلة » . ويلتقي القارئ بتارو وريو في مواقف عديدة ، فلا يكاد يجد لدهما تصرفات غامضة تحتاج الى تفسير ، بل يجد لدهما في كل مرة مشاعر انسانية تبلغ اعلى درجة من الصدق والامانة والتوتر . ولعل من هذا القبيل مثلا ما عبر عنه الدكتور ريو ببساطة ووضوح حينما قال : « . انني استشعر مع المقهورين حفا من التضامن اكثر مما استشعر مع القديسين . واحسب اني لا احب البطولة ولا القداسة . ان الذي يهمني هو ان يكون المرء انسانا » . ( ص ٢٦٠ - ٢٦١ ) . وهكذا نجد ان كل شخصيات كامو انما هي في الحقيقة شخصيات واعية لا تنتظر من اي ناقد فني ان يجيء فيتأولها او يفسرها او يحللها . . . !

ولسنا نريد ان نستمر في شرح نماذج اخرى لبعض الشخصيات الوجودية ، وانما حينئذ نقول ان الرواية الوجودية لا تضع بين ايدينا ابطلا نادريين يأتون من اعمال الشجاعة والقداسة ما ليس لنا عليه يدان ، بل هي تقدم لنا في معظم الاحيان شخصيات بشرية عادية تعاطف معها ، وتتأثر بها ، ونستجيب لها . حقا انه ليس



جان بول سارتر

و

ييمون دو بوفوار

المجمعات . وسواء اكانت هذه المواقف مظهرا من مظاهر الانهيار الخاقي الذي يعانيه المجتمع الاوروبي ، أم مجرد تفسير عن الحرية المطلقة التي نمنحها مثل هؤلاء الاطال لانفسهم في تصرفاتهم الخاصة ، فسان من المؤكد ان الشخصيات التي نلتقي بها في كل روايات سارتر وسيمون دي بوفوار هي نماذج انسانية متوترة للصدق والصرحة والجرأة الخلقية . وليس غريبا ان تنطوي روايات سارتر على الكثير من المواقف الجنسية ، فاننا نعرف كيف اهتم زعيم المدرسة الوجودية الفرنسية في مؤلفه الفلسفي الضخم : « الوجود والعدم » بتحليل الدلالة الانسانية للجنس ، وبيان معنى الحب ، وتعميق الرابطة الجنسية ، وتفسير معاني السادية والمزوخية ، وتقديم ضرب من التحليل الوجودي لصلة الرجل بالمرأة ... واما سيمون دي بوفوار فان كتابها « الجنس الثاني » ( بجزءه ) لا زال اعمق دراسة فلسفية لمشكلة المرأة ، ولا زالت آراؤها فيه عن الحرية الجنسية التي ينبغي ان تتمتع بها المرأة موضع جدال ومناقشة . فهل نستكثر على الروائي الوجودي ان يتعرض لتحليل بعض هذه المواقف الجنسية عندما يكون بصدد شخصيات حية تواجه تجربة الحب ، وتصطدم في حياتها الغرامية بمشكلة الصراع مع « الاخر » ؟

واخيرا قد يأخذ البعض ايضا على الروائيين الوجوديين انهم كثيرا ما يجرون على السنة ابطالهم كلمات مبتذلة ، وعبارات سوقية ، حتى اننا نندر ان نجد لدى كتاب اخرين كل هذا الحشد الضخم من الفاظ السباب وتراكيب العامة ! ونحن لا ننكر ان لغة الرواية عند سارتر او سيمون دي بوفوار تختلف اختلافا كبيرا عن نظيرتها عند جيد او بروست (مثلا) ، ولكن من المؤكد ان الحوار العامي اقرب الى طبيعة الرواية الوجودية من اية لغة منمقة ، او أي تراكيب لغوية بليغة . ولعل هذه التجربة التي قام بها الوجوديون حين عمدوا الى التقريب بين العامة والفصحى هي أكبر دليل على ان عمق الافكار لا يتعارض مطلقا مع سهولة التعبير . واما الالفاظ السوقية التي قد تتردد على السنة بعض الشخصيات في روايات الوجوديين ، فانها لا تزيد عن كونها مجرد تعبيرات عامية تدور على كل لسان في مجتمعات جريئة لم تعد تتصنع التأدب او تتكلف التعبير ! ولسنا بصدد تبرير مثل هذا الاسلوب ، وانما حسبنا ان نذكر القارئ باننا هنا بازاء روايات قد انبثقت في مجتمعات منهارة عانت ويلات الحرب ، والاحتلال ، والتفكك الاجتماعي ، فليس بدعا ان نراها تصور لنا اشخاصا معذيين قد فقدوا ايمانهم بقيم مجتمع ما قبل الحرب ! وهكذا تتنكر شخصيات سارتر وسيمون دي بوفوار للمجتمع الفرنسي البورجوازي ، فتثور على نفاقه ، وتتمرد على لغته المنمقة ، وتنبتادبه المصطنع ، لكي تؤكد فضيلة الصراحة العامة ، وتعالي من شأن لغة الكلام العادية ، وتصطنع في حوارها اساليب العامة من الناس ! وهل كانت « الرواية الوجودية » سوى مجرد تعبير عن هذا الوضع الانساني المشترك الذي يحياه اناس زالت الفوارق بينهم ، وتوحد مصيرهم ، ووجدوا انفسهم - للمرة الاولى في تاريخ الانسانية - بازاء خطر مشترك يهدد مستقبل حياتهم ؟ فكيف لمثل هذا المجتمع الجديد ان يتكاثف التعبير ، او ان ينمق الاسلوب ، وهو الحريص على محو الفوارق اللغوية ، ومخاطبة اناس من لحم ودم بلغة بسيطة يفهمها الجميع !!

زكريا ابراهيم

( الخرطوم )

من الضروري للقارئ ان يكون قد اجتاز نفس الازمات الوجودية التي مرت بها هذه الشخصيات ، ولكنه مع ذلك لن يجد أدنى صعوبة في أن يلمس ما في تصرفات تلك الشخصيات من صدق وأمانة وواقعية . ومن هنا فان القارئ العادي الذي يتابع مجرى الاحداث في رواية من روايات سارتر او كامو او سيمون دي بوفوار قلما يشعر بالحاجة الى ناقد فني يأخذ بيده حتى يكشفه عن مبررات سلوك دانيال او ماتيو ، وتارو او ريو ، وهنري بيرون او صديقه روبير دوبروي . الخ . وحسب القارئ انه يندمج في حركة الرواية وتتسلسل احداثها ، لكي يدرك الحدث وتحليله في آن واحد ، ولكي يشارك في تصرفات الشخصيات وبواعثها في الوقت نفسه . وربما كان من بعض افضال الوجوديين على الرواية انهم قد حاولوا دائما ان يقيموا ضربا من « التوازن » بين تصوير المناظر وتسجيل الاحاسيس ، بين عرض الاحداث وتحليل العواطف ، بين اللقطات الموضوعية والملاحظات الذاتية ، بين تسلسل المواقف وتناغم البواعث . الخ . ولا شك ان هذا « التوازن » انما هو السر فيما تنطوي عليه معظم الروايات الوجودية من صدق فني وعمق فلسفي .

بيد ان البعض قد يأخذ على جماعة الروائيين الوجوديين انهم وان كانوا قد اضعفوا على الرواية عمقا فلسفيا وثقلا فكريا ، الا انهم قد انحدروا بها في كثير من الاحيان الى مستوى الاسفاف الخلقى والتبذل الجنسي . فهذا ماتيو (مثلا) أحد ابطال رواية « دروب الحرية » يغزر بصديقته مارسل ، ويتخلى عنها ، ثم يسرق مالا من عشيقته تاميذه ، لكي يعمل على اجهاضها ! وهذه آن زوجة دوبروي في رواية « المثقفين » تخون زوجها مع أول رجل اجنبي تلتقي به ، فتذهب مع الروسي سكرياسين الى غرفته ، ثم تنقل اليها تفصيلات دقيقة لتلك الليلة الفاشلة التي قضتها معه ! ولا تلبث هذه المرأة ان تلتقي بالامريكي ليويس بروغان فتقضي معه فترة حب طويلة تدوم ثلاث سنوات ، تعود بعدها الى زوجها محطمة كسيرة النفس فتعزم على الانتحار ! واما نادين ابنة آن فان دي بوفوار تصورنا لنا بصورة الفتاة الهستيرية التي تهرب من كل مشكلاتها عن طريق الجنس ، فتفرط في الاتصالات الجنسية ، وتلوم امها لانها لم تكن بعد قد عرفت لذة الحياة الجنسية ، مما يدفع بالام الى قبول التحدي والاستسلام لأول رجل يدعوها ! والامثلة كثيرة على ما في الروايات الوجودية من مشاهد جنسية ومواقف مكشوفة ، مما قد يوقع في روع القارئ المتسرع ان هذا النوع من « الرواية » يدخل في نطاق ما اعتدنا تسميته باسم « الادب المكشوف » . ولكننا نجانب الصواب حتما لو أننا استندنا الى بعض هذه المشاهد الجنسية التي ترد في تضاعف روايات سارتر او سيمون دي بوفوار من أجل الحكم على « دروب الحرية » او « المثقفين » (مثلا) بانها رواية جنسية . وحسبنا ان نقف على ما في هذه الروايات من تحليل دقيق للعواطف ، وتسجيل عميق للاحاسيس ، لكي نتحقق من اننا لسنا بصدد مشاهد اريد بها الاستثارة ، بل نحن بصدد عواطف فردية قد صورت بدقة وصرحة . وقد تروعا نحن الشرقيين تلك الحرية الجنسية التي يتمتع بها ابطال الروايات الوجودية ، ولكن من المؤكد ان المواقف الغرامية التي تواجه هؤلاء الابطال ليست - في بيئاتهم - مواقف مصطنعة او احداثا غير عادية ، بل هي خبرات معاشة تتفق مع طبيعة الصلات بين الرجل والمرأة في تلك